حديث المغرب في المشرق

للدكتور إبراهيم حركات

لأقطار المغرب عموماً صيت كبير في أحداث المشرق وتفـاعلاتهـا، وهـذا العرض التـاريخي ليس إلاّ تسجيـلاً أو تـذكيراً بعـدد من المعـالم البـارزة في هـذه الأحـداث والبصمات التي تركها ماضي المغرب الإسلامي في مجتمعات المشرق وبعض أنماط ثقافتـه ومسيرته التاريخية حتى يومنا هذا.

ما المغرب، وما المشرق أولاً ؟

المغرب تـاريخيـا هو ذلـك الجزء الـذي يمتـدّ من أقصى حـدود ليبيـا شرقـاً إلى سواحل المغرب الأقصى غرباً، ويدخل فيه الأندلس وحتى صقلية، وكل مـا كان شرق هذا المغرب الكبير فهو مشرق إلى أعماق شرق آسيا. وهـذا العرض ينصب على المغرب الأقصى وحـده مـا لم يقع التعميم بـالنّص، ولكنّـه يشمل عموم المشرق لاسيا الإسلامي منه.

لماذا اهتمّ المغاربة بالمشرق الإسلامي ؟ الأسباب واضحة، فهناك العامل الـديني وزيارة البقاع المقدّسة وتبادل المنافع التجارية والاقتصادية والتبادل الثقـافي وتحقيق هوية تتجـاوز المحيـط الجغرافي الضّيق وتمتـدّ إلى الأفق الإنسـاني الواسع الـذي تعززه عقيدة مشتركة وثقافة يرتفع القرآن الكريم في أعلى قممها.

صحيح أن المغاربة عموماً تعرفوا على المشرق من عصور موغلة في القدم قبل الإسلام من طريق الفينيقيين فضلاً عن التّعايش القديم بالشّام واليمن إذا أخذنا بالنّظريات التي تتفق معظمها على رد الأُصول الأَمازيغية إلى هاتين المنطقتين. وصحيح أيضاً أن الصّلات لم تنقطع مع الاستعمار الرّوماني حتى إنّه لينسب إلى الملك جوبا المغربي أنه ألف كتاباً باللاّتينية عن بلاد العرب. وهو قد ربي في البلاط الرّوماني. لكن المغاربيين عموماً لم يجدوا من سعة آفاق الاتّصال والتّقارب والتّمازج مع المشرق بعد الإسلام ما وجدوه قبله.

ثم إن هناك مسألة ينبغي إثارتها هنا، وهي أن المغاربيين هم الذين كانت منهم المبادرة الأُولى للتعامل مع الدّولة الإسلامية. ألم يعلن عدد من زعماء زناتة إسلامهم على يد الخليفة عثمان ؟ ألم تتردّد بعض الأَحاديث النّبوية أو المنسوبة إلىالرّسول ﷺ في التنويه بالمسيرة المستقيمة لأَهل المغرب ؟ ثم إنّ مؤلّف الذخيرة السنية يورد نصّاً مهماً عن انتساب زناتة إلى قيس عيلان واحتجاج زعمائها بهذا النسب أمام قادة العرب في فتوحهم الأُولى للمغرب وأن قتال الإخوة ليس له ما يبرّره.

ولقد ازداد المشارقة تعرفاً على المغاربة من خلال الانتصارات العظيمة التي حقّقها المغاربة المسلمون إلى جانب العرب في فتوحهم عَبر الشمال الإفريقي والأَندلس، وطبع اسم طارق بن زياد التاريخ الإسلامي بطابع النّصر والفوز وما تزال الصّخرة التي حشد فيها جيشه بعدوة الأَندلس تحمل اسمه على نطاق عالمي.

لكن التاريخ المغربي لا يمكن أن ينسى أن بعض ولاة بني أمية ارتكبوا أخطاء شنيعة في تخميس البربر بعد إسلامهم، وسوقهم بعشرات الأُلوف رجالاً ونساء إلى المشرق، وهناك عرف المشارقة إخوانهم المغاربة أكثر فأكثر، وانضم بعضهم قبل هذه الأَحداث وبعدها إلى الحركة الخارجية، كما هو الشّأن في عكرمة مولى ابن عباس والذي عرف كأستاذ لامع للمذهب الخارجي، وهو مع ذلك من المحدثين الثقات. ويقتضي ذكر المذهب الخارجي هنا الإشارة إلى أن اعتناق المغاربة له لم يكن ضد الإسلام بطبيعة الحال، ولكن ضدّ السياسة الأموية خصوصاً في أواخر الحكم الأموي.

ثم إنه لا يتوفّر نص فيما أعلم يثبت أن خوارج المغرب الأقصى على وجه التّحديد، طبقوا المذهب الصفري بحذافيره، أي بما في ذلك إباحة قتل المخالفين من النساء وأطفال المخالفين. ويردّد ابن خلدون أسماء بعض الذين تلقوا من أمازيغ المغرب المذهب الخارجي ومنهم سمغو وسعيد بن واسول جدّ بني مدرار.

وقد ردّد مؤرّخوا المشرق ردود فعل الحركات الخارجية المغاربية انطلاقاً من ابن عبد الحكم والطبري ومن تبعهما. وأجمعوا على عنف ردود الفعل هاته، ونكسة الفاتحين العرب وتحمّلهم مسؤولية أخطائهم.

لكن، أين حديث المغرب في المشرق بعد هذا ؟

إننا نجده في العديد من المجالات :

1 ـ في العمل على إشعاع المذهب المالكي والحديث النبوي.

2 ـ في التبادل العلمي والثقافي.

3 ـ في الإشعاع الصوفي ونشر عدد من طرقه.

4 ـ في مجالات الجهاد والمقاومة.

5 ـ في تأهيل المغاربة لعدد من المناصب التي تتطلّب الثّقة والكفاءة العلمية.

6 ـ في المجالات التّجارية والسياحية والاقتصادية.

7 ـ في المجالات السياسية والدبلوماسية.

إن كل نقطة من هذه المحاور تتطلّب وحدها حديثاً، لا بل أبحاثاً مستفيضة. لكن من هذا الذي يتّسع وقته أو عقله ليكتب في كل شيء ؟ وأين من وفقه الله ليغلق آذانه عن كل شيء إلا عمّا يمسّ صلات المغرب بالمشرق ؟ فلنكتف بنظرة تعبر هذه الآفاق الواسعة، فلربما كانت هذه النّظرة كفيلة على الأقلة بأن تزيل عن أبصار بعض الغافلين غشاوة تحجبها عن حقيقة ثابتة، وهي أن المغرب الإسلامي في كل عهوده الماضية، استطاع أن يثبت نجاحه في مدّ الجسور مع المشرق بالرّغم من الصّدمات العابرة، وأن يؤكّد فعاليته الحضارية أخذاً وعطاء. وأن لا غنى للمغرب المعاصر عن إعادة مدّ هذه الجسور بشكل أكثر تألّقاً ونجاحاً، في الوقت الذي يصرّ

الغرب على أن يواصل بكثير من الريبة والحذر إقامة الحواجز في وجه المغاربة كلّما حاول المغرب إقامة جسور الودّ والصّداقة.

والآن، يمكن أن نلقي نظرة على ما سبقت الإشارة إليه من مجالات التّقارب التّاريخي مع المشرق.

1 ـ إشعاع المذهب المالكي والحديث النّبوي

اتّجه المغاربة منذ أن بدأت شهرة الإمام مالك تخترق آفاق الشمال الإفريقي والأندلس إلى المشرق، وبالذات إلى المدينة المنورة، فأخذ عدد من طلبتهم مذهب مالك عن صاحبه مباشرة. وعرف المغاربة بجدّيتهم في الدّرس والمثابرة وحسن السّلوك، وفضّلوا مذهبه على غيره، فقد تعاونت عدّة مؤثرات على ذلك، بما فيها تأثير دولة بني صالح بالشّمال، وأخذ أمويي الأندلس بالمذهب المالكي رسمياً وبتوجيه من بعض تلاميذ مالك خصوصاً يحي بن يحي المصمودي الطّنجي. وهذا إلى جانب أن التتلمذ على أبي حنيفة يتطلّب مرور المغاربة بالعراق، وقليل من طلبتهم كانوا يقصدونها. وأخيراً فإن اعتدال المذهب المالكي وجدّيته وتدرجه في أُصول التّشريع يتلاءم مع العقلية المغربية واستقامتها. ومما لا ريب فيه أن المغرب رفض مذهب الخلافة العباسية كتوجه سياسي أيضاً.

وقد تعرف المشرق على دور المرابطين في إشعاع المذهب المالكي والالتزام بالسّنة عموماً في توجهاتهم، بقدر ما تعرف على نضالهم ومواقفهم البطولية في الأندلس حتى إن الغزالي كما هو معروف، كان عازماً على القدوم إلى المغرب لتهنئة العاهل المرابطي وتحميسه للمزيد من النّضال. وفي هذا العصر تردّدت شهرة الفقيه الكبير عياض في بقاع المشرق وأخذت أقواله مكاناً بارزاً في الكتابات الشرقية. أما كتابه الشّفاء فقد تلقفه عشرات الأُلوف من الطّلاّب والدارسين. ويذكر اسم عياض دائماً بالتّبجيل والتكريم.

ولئن كانت دراسة الفقه تقرن بدراسة الحديث فإن اسم ميمون بن ياسين المرابطي لم يكن إلاّ واحداً من أعلام الدارسين للحديث بالمشرق، فقد تردّد بعده

صدى حركة المهدي بن تومرت التي دوت في أعماق المشرق الإسلامي وعبر العالم الإسلامي كلّه. والمهدي قامت حركته في المجال الفقهي على الدّعوة إلى الاجتهاد والرّجوع إلى الكتاب والسّنة مهما كان من مؤثراته المذهبية الأُخرى. وازداد إقبال الدارسين المغاربة بعده على معاهد المشرق، بل إن فيهم من مال إلى مذاهب أو اتّجاهات أُخَرى وكان لإنتاجه أو إشعاعه العلمي وزن، كما هو الشأن في المحدّث أبي الخطّاب بن دحية الكلبي ومحمد السّلاوي الذي درس المذهب الحنفي بمصر وزاول تدريسه بها، ومحمد بن مرزوق السّبتي الذي زاول تدريس الحديث بالمشرق والأندلس.

وابتداء من القرن الثامن على الخصوص يزود المغرب أقطار المشرق لاسيما الشام، بأعداد كبيرة من أساتذة الفقه المالكي والإطارات القضائية التي حظيت بتقدير كبير، ويكفي الرجوع إلى بعض موسوعات التّراجم كشذرات الذهب وخلاصة الأثر للمحبي والضوء اللاّمع للسخاوي للتّعرف على هذه الظاهرة، وذلك أن حكومات المماليك بوجه عام اهتمّت بتكوين إطارات المذهب الحنفي أكثر من غيره، وبقي الفقه المالكي مهمّشاً فأتيح لمغاربة المغرب الأقصى وأهل الأندلس أن يسدوا ما حصل من فراغ في مجال الفقه المالكي، ولكنّهم سدوا هذا الفراغ بكفاءة نادرة، وحظوا بتقدير بالغ لحسن سلوكهم وسعة اطّلاعهم وتقواهم. ولقد ازداد المغاربة اقتراباً من المشرق بإقبالهم على متن خليل الذي بدأت مدونة سحنون تترك له مكانها تدريجياً حتى لم يعد لها من مرتادين إلا قلّة منذ القرن العاشر الذي عرف أعلاماً كباراً كابن قاسم القصار وأبي العباس المنجور ورضوان الجنوي. واهتزّت جنبات المشرق على إشعاع محمد بن سليمان الروداني الذي غادر سوس يافعاً ليواصل دراسته بالمشرق خلال القرن الحادي عشر، حيث نبغ في علوم عديدة فكأنّه في كل منها متخصص عالي التّخصّص وقد وصفه المحبي بأنه فرد الدنيا في علمه وبأنّه أتقن كل العلوم. وقد ترك تلاميذ عديدين بالحجاز وتركيا، وأسندت إليه شؤون الحرمين، وناهيك بهذا الشرف، وهو عالم فريد في أصول الشريعة وفي الرياضيات والكيمياء والفلك واللّغة وغيرها.

وتعرف المشرق في الأَجيال اللاّحقة على أعلام بارزين في مجالات علوم الشّريعة عموماً كالحسن بن مسعود اليوسي ومحمد التاودي بن سودة وأبي سالم العياشي ومحمد بن عبد الكبير الكتاني. وشعيب الدّكالي، وكل هؤلاء وغيرهم كانت لهم بالمشرق حلقات تدريس ومناظرات واتّصالات عديدة مع الطّلبة والعلماء والمثقفين.

2 ـ التبادل العلمي والثقافي

ليس هذا التبادل في الواقع إلا تكملة واتّصال بما سبق، فالطّلبة المغاربة يقصدون المشرق أكثر مما يقصد المشارقة المغرب. ففي المشرق أنماط ثقافات ومناهج تدريس ومدارس لا حصر لها لإيواء الطّلبة وكل هذا وغيره يغري الشّباب بالرّحلة من أجل اكتساب المعرفة وتنويعها وربّما للكسب أحياناً أو مزجه بالطّلب.

لكن في نطاق الإشعاع المغربي خارج الفقه والحديث يذهب صيت المثقفين والعلماء والمبدعين بعيداً في بلاد المشرق فضلاً عن أقطار المغرب وحتى لدى العالم المسيحي ولو بعد حين. وما شهرة نزهة المشتاق للإدريسي في كتابات المشارقة إلا غيض من فيض. والعالم ابن البناء درست كتبه بالمشرق. وابن آجروم وجد آلاف الهواة من دارسي متنه مشرقاً ومغرباً، بل كان متنه من أوائل ما طبع بروما بعد القرآن والإنجيل. وكذلك أخذ إنتاج أبي القاسم الشريف السبتي مكاناً طيباً بين الإنتاج الأَدبي واللّغوي بالمشرق، وهو ما حصل لشرح المكودي الفاسي على الأَلفية. أما مدخل ابن الحاج الصوفي فمرجع يتردّد ذكره مراراً في مجال النظريات الصوفية وقضايا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. وما زال طبعه ونشره يعاد حتى يومنا هذا خارج أقطار المغرب.

3 ـ الإشعاع الصوفي

ظل التصوف المغربي في مجمله سليماً إلا ما ندر، من الإغراق في التحليقات والرموز الموغلة في الغموض، وبعيداً عن التّوجّهات المتطرفة التي تحولت في بعض الأَقطار الإسلامية إلى عبادة غريبة لا يَرْبِطها برباط السّنة شيء. إن مؤثرات الهند

وفـارس وحتّى بعض المؤثرات المسيحيـة نفـذت إلى عـدد من المـذاهب التي اعتنقتهـا طوائف إسلامية بـالمشرق. وبـالمقـابل، احتفـظ التّصوف المغربي بتقـاربـه مع التعـاليم الإسلامية متشبثاً بـالسّنّـة. وهـذا لا يعني عـدم وجود ممـارسـات طرقيـة منحرفـة أو مبتـدعـة. لكن منظري التّصوف وهـذا هو المهم، درسوا علـوم الشّريعـة وحرصـوا في تعـاليمهم علىتطبيق نصوصهـا. وعنـدمـا نتنـاول دور التّصـوف المغربي بـالمشرق فـإنّ اذهاننا تنصرف حتماً إلى تعـاليم الشـاذلي التي غزت العـالم الإسلامي كلـه. وأبو الحسن الشاذلي كما هو معلوم، من منطقة غمارة. وشاذلـة قريـة بتونس استقرّ بهـا ردحـاً من حياته، عاصر الشاذلي كلا من الموحدين ونشـأة الـدولـة المرينيـة، وانتشرت تعـاليمـه بالمغرب الإسلامي قبل أن تنتشر بمصر وبـاقي العـالم الإسلامي. ويوضّح الشـاذلي أن مذهبـه ليس بـالرهبـانيـة ولا بعيش الشعير والنّخـالـة، وإنّما هو امتثـال لأوامر اللـه واتّبـاع سبيل النّجـاة بيقين. ويقول : جنب قلبـك الأوثـان وأرح بـدنـك من همـوم الدنيا ثمّ كن ما شئت، لأن الله لا يعاقب عبداً متواضعاً أجهد نفسه ثم استراح ولكن يعاقب من أجهد نفسه فباهى بذلك. والشاذلي ضـد المرقعـات واتخـاذ الصوفيـة لزي خـاص، ويرى أن الصّـوفي يجب أن ينـدمـج في الأوسـاط الشعبيـة ويتعـامـل معهـا بحسن الخلق والمعاشرة، وبوجه عام ظهر الشاذلي نظيفاً في مظهره وأفكاره وطريقته. وكل هذا حبب إليـه فئـات من الشبـاب والمثقفين والأوسـاط الشعبيـة. ثم إن الحزب الذي أنشأه أصبح يردّد في حلقات الذكر في كل مكان حتى سجل ذلـك ابن بطوطـة في زيارته لبعض مـدن مصر. بل إن بـدر الـدين قـاضي قضـاة مصر قـال في جنـازة الشاذلي إن بركته حلّت بالديار المصرية منذ دخوله إليهـا. إن الترتيبـات الخـارجيـة لطريقة الشاذلي اكتسحت حلقات الـذّكر والعبـادة وأعطت للشيخ الجزولي فيما بعـد مفتاحاً لترويض تعاليم الشـاذلي وكسبهـا مزيـداً من الشّعبيـة فـأنشـأ دلائل الخيرات الذي تهافتت الملايين من الأنصار على ترديده عبر العالم الإسلامي.

وكذلك ظهر ابن الحاج العبدري المشار إليـه آنفـاً، خلال القرن الثـامن حيث استقرّ بمصر ونشر بهـا تعـاليمـه لا كصـاحب طريقـة، بل كنَـاقِـد اجتماعي صوفي عـزّ نظيره بين نقاد التّصوف، فقابل في كتابـه المـدخل بين الأوضـاع الاجتماعيـة بـالمشرق

خصوصاً مصر، ونظائرها بأقطار المغرب. والتفت إلى أوضاع المرأة وأزمة طبقة المتفقرة التي تفشى بينها الانحراف، وقدم نظرات جيدة عن قضايا التربية والتعليم وطريق السّلوك حسب منظوره، وكان شديد القسوة في مسألة السماع وكان الحديث عنها حينئذ من أهمّ قضايا السّاعة في وسط المثقفين. ويأتي أحمد زروق في القرن التاسع فيستكمل دراسته بالمشرق ويجمع كسائر منظري التّصوف ونقاده البارزين بين علوم الشّريعة وعلوم الباطن. ويضع سلسلة من المذكرات في نقد أوضاع الصوفية والفقراء والزوايا عبر العالم الإسلامي وحمل بشدّة على اتخاذ الكهانة سُلَّماً للظهور بالولاية واستَنْكَر المرقعات والسُّجات المزخرفة وما يماثلها في ذلك من عكاكيز وسجادات، بل استنكر حتّى الإفراط في التّعبّد والحياد عن اليُسْر في الدّين. وتميز زروق بالدّعوة إلى اعتزال الصوفي عن النّاس خلافاً لمنظور الشاذلي كما سبق، وهناك نقاد اجتماعي صوفي آخر هو علي بن ميمون الغماري، وكل هؤلاء الثلاثة : ابن الحاج وزروق وعلي بن ميمون كانت لتعاليمهم أصداء واسعة بالمشرق، وقد توفي ابن الحاج بمصر، وزورق بليبيا، وابن ميمون بلبنان مثلما توفي الشاذلي بمصر. فلا عجب والحالة هذه أن ينوه ابن بطوطة في القرن الثامن بما يلقاه المغاربيون عموماً بالشّام لاسيا بدمشق وهو ما لاحظه ابن جبير، حتى كان الشاميون كما قال ابن جبير يتبركون بالحجاج المغاربة. وهؤلاء كانوا يجدون إقبالاً من السّلطات القائمة، على توظيفهم، ومن السكان على استخدامهم، وقلما كانت دمشق تشكو البطالة.

4 ـ الجهاد والمقاومة

أَكد المغاربيون حضورهم في ميادين الشرف دفاعاً عن المناطق الإسلامية إلى جانب إخوانهم المشارقة، وعرفت أنظمة الخلافة الإسلامية ما عرفته من قوة شكيمة المغاربة ووقوفهم ببسالة وإباء في وجه الجيوش الغازية مهما كانت قوتها وأساليبها الحربية.

عمل المغاربيون في جيوش الخلافة من وقت مبكر لاسيا منذ العهد الأموي لكن حضورهم برز أكثر فأكثر خصوصاً منذ العهد الفاطمي حيث عرفتهم الشام

ومصر، وكان العنصر المصمودي بارزاً في العسكر الفاطمي بالشّام، وعندما اندلعت الحروب الصّليبية كان المغاربة في مقدّمة صفوف المجاهدين، وحيهم ببيت المقدس وهو متواضع، ظل قائماً من هذا العهد حتى هدمه اليهود بعد نكسة 1967 وسقط العالم يوسف الفندلاوي شهيداً في مواجهة الصليبيين بالشّام وهو ذو مكانة عزيزة لدى أهلها كما سجّل ذلك ياقوت الحموي وغيره. وقد أصر هذا العالم على أن يموت شهيدا. والمعونات الحربية التي قدّمها المغرب دفعات متوالية للخلافة العثمانية على يد السلطان محمد الثالث كانت من الأهمّية بمكان على ضعف وسائل المغرب ومحدودية استعداده الحربي. وكل ما قيل عن توقف المغرب عن مساعدة صلاح الدين خلال الحروب الصّليبية يغفل حقيقة ثابتة هي أن المغرب كان يواجه حرباً صليبية بالأندلس لا تقل ضراوة، وهو في ذلك وحده والبابوية بروما تهتم بالجزيرة الإيبيرية وتساعدها أحياناً أكثر مما تهتم بأقطار المشرق ومساعدتها. وما أمر القوات المسلّحة الملكية ودورها بمصر والجولان ببعيد العهد. ولو سمع صوت المغرب في الوقت المناسب لاتّجهت الكفّة بالتأكيد لصالح المجموعة العربية والإسلامية التي فقدت سيطرتها على القدس وجزء كبير من فلسطين وسوريا وحتى من لبنان.

5 ـ في المجالات التجارية والسياحية والاقتصادية

جُبل المغاربة على حب المغامرة والضرب في الأرض ابتغاء للرّزق أو إشباعاً لفضول علمي أو اجتماعي، وهكذا وزعوا اهتمامهم خارج الأرض المغاربية بين غرب افريقيا والمشرق بكل أقطاره. ففيما عدا الأرض الأندلسية التي فقد المغرب بها زهرة شبابه غير ما مرّة، وضحى بأموال خزينته وخواصه من أجل المحافظة عليها لم تكن أوروبا مقصد المغاربة إلا في عمليات غزو ما هي في الغالب إلا ردود فعل متأخرة ضد هجمات النرمان والمسيحيين عموماً. ومهما يكن من شيء فالأثر المغربي يظل واضحاً حتى يومنا هذا في مالطة، والمغاربة لم تخل منهم أوروبا تجاراً وصناعاً وغيرهم، لكن المشرق بالنّسبة إليهم منطقة شاسعة متنوعة العطاءات وإمكانيات التقبّل، فلم يكن عجيباً أن تصل بعض بضائع المغرب عن طريق البحر أو البر إلى

أجزاء الشرق الأوسط وغيره، وشهرة الجلود اللمطية والدرق التي تصنع منها رددها الرّحالة والجغرافيون جميعاً، واليعقوبي تحدث في كتاب البلدان عن وصول المراكب الصينية إلى ميناء ماسّة بسوس في القرن الثالث، ومنتجات سوس ودورها في التبادل التجاري مع الخارج بما في ذلك الشرق أمر ضارب في أعماق التاريخ ومسيرته. ومن قرأ رحلة ابن بطوطة فسيجد أسماء عدد من التجار المغاربة الذين صادفهم هذا الرحالة عبر رحلته الطويلة، فقد لقي تاجراً مصمودياً بالبنغال وآخر بالصين وقد استقرّ بها وتعلّم كتابة لغتها، بل لقي جماعة من تجار المغرب في سفينة تتردد بين سيلان وجاوة.

إن الشرق الذي يفيض بالأسرار قد استهوى شباب المغرب وكهوله عبر القرون. ولقد ظلّ طريق سجلماسة إلى مصر نشيطاً بالقوافل التي كانت تتردّد بين الجهتين قروناً متوالية. ودرس رحالة المغرب وجغرافيوه من أوضاع المشرق في العهود الماضية ما لم يدرسه غيرهم. وليست رحلات ابن بطوطة والعبدري وابن رشيد ونزهة المشتاق للإدريسي وكتاب الوزان في وصف افريقيا إلا أمثلة قليلة من تعريف المغرب والعالم بالمشرق وحتى بمجاهل افريقيا وببعض أنحاء أوروبا. وتبين رحلة أبي سالم العياشي والمعروفة بماء الموائد عن الاتّصالات الثقافية والدّينية التي أجراها هذا العالم الفذ مثلما فعل الرّحالة من أسلافه. فالمغاربة كانت تستأثر بهم الاهتمامات العلمية والمعالم الحضارية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية. وإن الأوصاف التي خصت بها الرحلات المغربية البقاع المقدّسة والمآثر والمشاهد الإسلامية لشيء يثير الإعجاب ويدل على حساسية حضارية ودينية وعلمية بالغة.

6 ـ المجالات السياسية والدبلوماسية

عن طريق المغرب عرف الشرق الأندلس. وفي العرب من اختار المغرب ملجأ منذ بداية الفتوح فكان بالشّمال بنو صالح بالنكور. وتقول بعض الروايات إن جماعات من عرب الشّام الذين كانوا في حرب الخوارج على مشارف طنجة لجؤوا إلى الأطلس المتوسط فراراً من مطاردة الخوارج. وظل المغرب موضع اهتمام الخلافة حتى

إن المصادر الشرقية التي عالجت شيئاً من تاريخ الفتوح الإسلامية تنوه بشكل خاص بوصول بعض الفاتحين إلى أعماق سوس، لأن هذا لم يحلم به فاتح بعد الرّومان. وحتى هؤلاء لم تتخط أقدامهم بعض المراكز السّاحلية إلا فيما ندر.

وكان لجوء المولى إدريس الأَول إلى المغرب وإنشاؤه ملكاً قاراً به، حدثاً مثيراً ومدوياً تردّد بانفعال في البلاط العباسي وتناولته الكتابات التاريخية بتفصيل وتحدث الطّبري عن إعدام واضح، عامل البريد بمصر، والذي سهّل خروج المولى إدريس من حدودها. ولقد كان المغرب أول منطقة استقلّت بشكل قارٍّ ونهائي عن الخلافة الإسلامية وهي في أوج قوّتها وامتدادها. إن ما يبعث على التّساؤل هو عدم استغلال هذه الفرصة من المعارضين الأَشراف وأنصارهم للدولة العباسية، في اتّخاذ المغرب ملجأ لحمايتهم وتقوية صفوف إخوانهم الأدارسة، والظاهر أن الرّقابة الشديدة التي فرضت على الطّرق البرية والمائية لاسيا بواسطة الأَغالبة كان من أهمّ أسباب محدودية الوجود العربي في العهد الإدريسي فيما عدا الهجراتِ المعروفة من القيروان والأَندلس. ولقد وجد كثير من العرب بما فيهم الأَشراف بغيتهم في أقاصي الإمبراطورية الفارسية القديمة، لاسيا منطقة ما وراء النّهر والتي هي خاضعة في وقتنا هذا للاتّحاد السوفياتي. إن الأَدارسة لم يعلنوا حرباً على الخلافة، بل هم ساعدوا على تقويم الانحرافات العقيدية ونشر الإسلام حتى حوض النيجر كما سجل ذلك ابن خرداذبة والدمشقي وكلاهما ألف في المسالك والممالك.

وأحيى المرابطون آمال الأمّة الإسلامية في مشرقها ومغربها في وقت أصبح الفاطميون فيه عاجزين عن مواجهة الغزو الصليبي بفعالية، كما أن الخلافة العباسية ضعفت عن تحقيق إعادة الصّف الإسلامي إلى وحدته وأمجاد عهوده الأولى. وهكذا مد المرابطون أيديهم إلى الخليفة العباسي المستظهر منذ قيام دولتهم فأعلنوا بيعتهم له وخاضوا غمار حرب طاحنة ضد الوثنية والانحراف والتّجزئة داخل المغرب، وقووا الوجود الإسلامي في معركة الزّلاقة التي دوت أصداؤها في العالمين المسيحي والإسلامي على السّواء. وإن كتابات المشارقة كابن الأثير وياقوت وابن خلكان عن يوسف بن تاشفين ودور المجاهدين المغاربة بقيادته لتعكس بعض هذه الأَصداء،

وتعبر عن صدق التعاطف مع هؤلاء المجاهدين. ولقد ظلّت بطولات المرابطين ومواقفهم على اختلافها تشغل حتى يومنا هذا من كتابات المشارقة واهتماماتهم قدر ما تشغله الآن من الشبابَ المغربي السّائر في مجال البحث والدّراسة. وما جهود أمثال عبد الحميد العبادي وأحمد مختار العبادي ومحمود علي مكي ومحمد عبد الله عنان وسهيل الزكار وعشرات غيرهم إلا تصديق لهذا الاهتمام : إن عملية إحراق كتاب الإحياء للغزالي والتي كان دور بعض الفقهاء الأندلسي أقوى من دور زملائهم المغاربة، إذا كانت قد أغضبت مؤلّف إحياء علوم الدّين، فإنّها لم تمنع هذا المؤلّف بالذات من الرّواج بين طبقة متصوفة المغرب والأندلس. وما تنويهات أبي مدين وابن حرزهم ومن تتلمذ عليهما سوى تأكيد لمواجهة مصادرة حرية الفكر بإعادة الاعتبار إلى هذا المؤلَّف الذي حشد حوله مآت الأنصار والتلاميذ.

ودخل الموحّدون بفكر جديد ومنهاج في الحكم والنّظر يختلف عن المألوف في أنظمة العالم الإسلامي، فهو فكر يعتمد على نظرية الإمامة الفريدة المجسّمة في شخصية المهدي والمتبوعة بخلافة من شأنها لا أن تصحّح أوضاع المغرب الإسلامي فحسب، بل وأوضاع المشرق الإسلامي أيضاً. إن المهدي بن تومرت الشّاب الطموح، بدأ بتغيير الفكر انطلاقاً من مكّة المكرّمة ثم بمصر، ولقي تشجيعاً وافراً من الغزالي، فالخلافة العباسية لم يعد لديها ما تمنحه لتحقيق وحدة العالم الإسلامي وقوته، وتبعية المغرب لها لا جدوى منها. ومن ثمّ خطّط المهدي بن تومرت لتصحيح الوضع السياسي والديني انطلاقاً من المغرب. أما عبد المومن فبدأت الفرصة تسنح أمامه عندما دُعِيَ لطرد النرمان من سواحل افريقيا، وتمّت العملية بنجاح وانتهت جيوش الموحّدين إلى أعماق ليبيا، حتى إذا كان عهد يعقوب المنصور استقرّ عزمه على التّوغل في مصر لتطهيرها كما قال، وكما أورد ذلك عبد الواحد المراكشي في المعجب. ومع أن مصر بلد عزيز على قلوب المسلمين والعرب جميعاً، فإن أوضاعها الاجتماعية بشكل خاص، وبحكم الدور السّلبي الذي نتج عن تسلّط أسر من المماليك وما كان من انحلال في سلوك قادتها إلا ما كان من استثناءات، كان ذلك دائماً مثار قلقٍ لدى الملاحظين المغاربة لاسيما مثقفيهم. ولطالما تناول مظاهر الانحلال بمصر رحالة وعلماء كابن الحاج

والعبدري السوسي وحتى المقريزي المصري في خططه. ومهما يكن من أمر فإن ظهور صلاح الدين الأيوبي كان حاجزاً نهائياً تجاه الامتداد الموحدي شرقاً. كما أن المقاومة الموحدية أوقفت امتداد الأيوبيين غرباً، ويحتفظ مؤلف «مفرج الكروب» في أخبار دولة بني أيوب بنصوص عشرات التقارير والمذكرات لاسيما الصادرة منها باسم صلاح الدين حول حروبه وما يردّده من انتصارات على الموحّدين في إفريقية. وليس في التراث المغربي المكتوب وثائق تؤكّدها أو تفنّدها. على أن كبار ملوك الموحّدين يحظون بتراجم مهمّة في المؤلّفات المشرقية التي كثيراً ما تأتي بتفصيلات عن الأحداث التي ساهموا فيها، ولا توجد في التراث المغاربي، كما هو الشأن في وفيات الأعيان لابن خلكان وفي ترجمة المهدي بن تومرت عند ابن شاكر في موسوعته عيون التواريخ.

وتردد كل المصادر الإسلامية أصداء قوة العملة المرابطية والعملة الموحدية. فقد حرص المرابطون والموحدون على أن تقترب سكتهم من أقصى حدود الصّفاء وتساير المقاييس الشرعية. وقد وضع كل من هؤلاء وأولئك يده على طرق مناطق الذهب بإفريقيا الغربية أو كان وسيطاً يحتكر أو رئيساً لتجارتها في هذا المعدن النّفيس. وكيفما كان الأمر فقد اكتست العملة المغربية في هذا العصر بالتّأكيد طابعاً دولياً حقيقياً، فالتّجار كانوا يبحثون عن أصفى العملات خصوصاً الذهبية، ولذلك كان لها مكان عزيز لدى تجار الجمهوريات الإيطالية وغيرها من وسطاء التّجارة الأوروبية فضلاً عن قيمتها لدى تجار المشرق. وكل هذا كان يعطي للدولة صاحبة العملة وزناً معنوياً في المجال السياسي.

وكان لمعركة الأرك أصداء بالغة في العالم الإسلامي فضلاً عن أقطار أوروبا والتي صمّمت على أن تأخذ بالثأر في وقت لاحق، وقد تركت هذه المعركة آثاراً قوية لفترة تناهز ربع قرن قبل أن تحل نكسة العقاب والتي أدت إلى التّقلّص السريع للوجود الإسلامي بالأندلس. ولقد توالى العالم الإسلامي أربعة قرون من أخطر الأحداث التي هزت العالم الإسلامي وهيأت بالتدريج لفترة استعمار الأقطار واسترقاق الشعوب بأكملها، فكان القرن السادس عصر الحروب الصليبية، والسابع عهد الهجمة التتارية التي خربت مراكز الحضارة والثقافة عبر المشرق كله، والثامن عصر

الانحلال الكلي للمجموعة الإسلامية ودخولها في صراعات مزمنة شرقاً وغرباً، والتّاسع عهد الكشوف الاستعمارية. ويا وَيْل أُمّة لم تعالج أدواءها من الداخل حتى تدمرها الكوارث من الخارج.

وفي غمرة التّفتت الإسلامي كان المرينيون حريصين على أن يصلوا أيديهم بالعالم الإسلامي شرقاً وشمالاً وجنوباً حتى ليمكن اعتبار العهد المريني أول عهد للانفتاح الدبلوماسي الواسع في تاريخ المغرب بعد أن كانت الصّلات الدبلوماسية مع المشرق محدودة، بل شهدت فترة طويلة من التوتر قبل الانفتاح المريني. وقد ضمن ابن خلدون والقلقشندي من الوثائق الدبلوماسية في موسوعتيهما ما يكفي لإثارة الإعجاب بحسن المبادرات المغربية التي كانت تلقى أصداء طيبة من مماليك مصر والشام وأمراء الحجاز. وبلغ الاهتمام بالبقاع المقدسة وتخصيص أوقاف مغربية لها ما لم يبلغه من قبل. فالشعور الديني لدى المغاربة قد اتّسع مداه في هذا العصر وما لحقه، بشكل يخفّف من صدمات العدوان الخارجي والذي كان العالم الإسلامي كلُّه يتلقّى ضرباته في هذا العصر. وأصبح للمغاربة مؤثراتهم وذكر واسع بأقطار المشرق، فابن بطوطة يتحدّث عن تأثير التّصوف المغربي وينزل عند شيخ زاوية مكناسي بمدينة قوص بمصر، وعند آخر بالشّام. وابن تغري في الجزء الثاني عشر من كتابه النجوم الزاهرة يتحدّث عن قاضي قضاة مصر في أواخر القرن الثامن بوصفه يعتنق المذهب الشاذلي. والواقع أن القرن الثامن يمثل انطلاقاً واسعاً لحركة التّصوف ونشاط الرباطات والزوايا بالمشرق والمغرب معاً كمرحلة تأمل وتعويض معنوي عن خيبة الأَمل التي أحدثتها الأَهواء والصّراعات السياسية والحروب الأَهلية.

ولم تنتعش آمال العالم الإسلامي بعد هذه النّكبات إلا مع قيام الدولة العثمانية ومواجهتها بصرامة وإصرار للأَطماع المسيحية. ولقد حرص المغرب في ظل السعديين والعلويين معاً على استقلاله الكلي عن النّفوذ العثماني الذي امتدّ إلى وادي تافنا شرقاً. وكانت هنالك صدامات مسلّحة مع الأَتراك في بداية الدولة السّعدية قبل أن يقرر الاخوان أبو مروان عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور الاستنجاد بالبلاط العثماني لإقصاء المتوكل المتعاون مع البرتغال. وارتبط المغرب بعد ذلك بعلاقات وطيدة

وحمية مع الدولة العثمانية وتبادل الملوك السّعديون معها مآت المراسلات وعشرات الوفود وأخذ المغرب عن الأتراك كثيراً من نظمهم وتقاليدهم كما فصل ذلك صاحب هذا العرض في بحث نشر قبل عدّة سنوات بتونس...

وحرص السلطان مولاي اسماعيل على إزاحة النفوذ التركي عن الأطراف المتاخمة للمغرب الشرقي الحالي والتي رغبت في مساعدته. وكانت من أجل ذلك صدامات قوية في عمق الجزائر، لكن أوضاع الخلافة العثمانية تجاه التّكتّل الأوروبي ضدها بدأت تسوء أكثر فأكثر، مما جعل السّلطان محمد الثالث يراجع السياسة المغربية نحو الدولة العثمانية، فاستعان بخبرائها في سلاح المدفعية والبحرية، وزود المغرب تركيا بالكثير من الذخائر الحديثة والأموال كما فصل ذلك أبو القاسم الزياني في الترجمانة الكبرى، وتواصل التعاون مع الدولة العثمانية والاستفادة من إطاراتها وخبرائها حتى آخر لحظة قبل إقرار الحماية، ولو أن التقنيين والضباط الأتراك تقلّص عددهم بسبب الضغوط الأجنبية وحاجز اللّغة. وحتى في تقديم أحد المشاريع الإصلاحية للبلاط العزيزي تجلّى التأثير التركي واضحاً في طابع هذا المشروع كما ورد توضيح ذلك في كتاب التيارات السياسية والفكرية بالمغرب لصاحب هذا العرض.

واستقبلت أقطار المشرق في عهد الحماية، بما فيها القدس ودمشق، فضلاً عن مصر وبغداد مآت من الطلبة دارسين ودعاة للقضية الوطنية. كما استقبلت عشرات السياسيين من أقطار المغرب، وعلى رأسهم البطل محمد بن عبد الكريم الريفي الذي كانت ثورته ضد الاستعمار تتابعها الصحافة المشرقية بعناية ودقّة، ومن إذاعة صوت العرب أعلن الزعيم المجاهد علال الفاسي نداء القاهرة، هذه العاصمة الإسلامية التي كأختيها بغداد ودمشق منحت أقصى ما يمكنها لإسماع صوت المغرب وأنين شعبه من الاضطهاد والإذلال والتّفقير. وهل ينسى المغرب أصوات محمد صلاح الدين وزير خارجية مصر ومحمد فاضل الجمالي وزير خارجية بغداد ومحمد ظفر الله خان وزير باكستان وهي تجلجل ملاحقة ممثلي الأطراف الاستعمارية بالتنديد بنفي ملك المغرب الشرعي والممارسات الاستعمارية على أرض لها سيادتها بنص القانون ؟

وأخيراً أين صوت المغرب بالمشرق في الوقت الراهن ؟ إنه صوت العقل والرّزانة والحرص على التوفيق بالرّغم من الأوضاع الداخلية لكل بلد، ومما تفرضه هذه الأوضاع أحياناً من صراعات خافتة أو معلنة، أبطالها غالباً يعلنون غير ما يخفون، ويكتمون غير ما يظهرون، لقد كان باستطاعة المغرب لولا هذه الأوضاع، أن يلعب دوراً بالغ الأهمّية في التعامل الاقتصادي مع أقطار المشرق عموماً، لكن حواجز القوانين والجمارك على هذا النّطاق الشامل مازالت حائلة دون هذا الطّموح الذي هو حق لأقطار المغرب والمشرق على السواء، وبحكم الأزمات السياسية القائمة فالتبادل البشري يبدو وكأنه يتقلّص في هذا العصر بدل أن ينمو ويتّسع، ففيما عدا الحجّ إلى البيت الحرام يبقى جهل المغاربة عموماً لاسيا جيل الشباب بالمكونات الحضارية لشعوب المشرق وأقطارها دليلاً آخر على عمق أزمة المجتمع الإسلامي ككل. وليس تبادل بعض الوفود الرّسمية وانغلاقها في قاعات التداول مما يوطئ أكناف هذا التواصل البشري الذي تحاربه بصرامة صامتة ومتزايدة يوماً عن يوم، مشكلات التعامل النقدي وأسعار التذاكر والفنادق، ومقتضيات الأمن التي تقلق أمن الأغلبية الساحقة من الناس دون أن تستطيع الأجهزة الحديثة تحقيق السيطرة المطلقة على التحليل.

غير أن هناك صوتاً رائعاً يدوي صداه في أنحاء المشرق ويعبر عن ذلك الجانب المشرق الذي لا تميته الأيام ولا تنسى ذكراه، ألا وهو الصوت الفكري والثقافي الذي يمثل الثقافة العربية والإنسانية بالمغرب لدى المشرق بشكل مشرف في معظم مجالات الإبداع والبحث والأصالة، فأساتذة المشرق بالمغرب كانوا صلة طيبة في التعريف بتراث المغرب وإبداعه في أقطارهم. وطلبة المشرق بالمغرب مهما كانوا أقل مما ينبغي ساهموا في هذا المجال أيضاً بعد تخرّجهم. ثم إن إنتاج المؤلفين والكتاب المغاربة يجد إقبالاً حسناً بالمشرق. وغالباً ما تكون المداخلات المغربية في نوادي الفكر بالشرق ذات وقع جميل، وقد نتجاوز هذا الوصف إلى أن تكون نافذة وذات بعد. وهكذا الأمر فيا يكون من معارض فنانينا وأصوات مطربينا والأصح مطرباتنا اللواتي أخذن مكاناً بارزاً في قلاع الطّرب المشرقي. والحق أنه لولا الحواجز المشار إليها لأسمع

المغرب صوته بالمشرق، بشكل أقوى وأبلغ ولكان في الانفتـاح المتبـادل لو أمكن، خير وأي خير للجانبين، فالمغاربة لا يصدرون شراً ولا دماراً، ولا يتـدخّلون فيما ليس من أمرهم، ولهم من الأطبـاء النطـاسيين، والقـانـونيين الـلامعين، والمهنـدسين البـارعين والأساتذة المطلعين، والاقتصاديين البارزين، والباحثين المتعمقين مـا يعـد في طليعـة الأدمغة الإسلامية وحتى البشرية كما تؤكد مساهمات الكثيرين منهم إمـا بمبتكراتهم أو أفكارهم ونظرياتهم. أعـان اللـه أبنـاء هـذا البلـد على تحقيق المزيـد من التواصل مع إخوانهم بالمشرق، وهو القـادر وحـده على إقرار الوئـام والسلام في هـذه الربوع، ولكم إخواني شكري وعميق امتنـاني لحضوركم، راجيـاً لجمعيـة العلمـاء خريجي دار الحـديث الحسنية ما هي له أهل من النجاح في مهمتها ومسؤوليتها والسلام عليكم ورحمة اللـه وبركاته.